إيلاف
أول جريدة إليكترونية عربية يومية

جبرا ابراهيم جبرا: المثقف رساماً

خالد السلطاني

الإثنين 19 ديسمبر 2005 GMT 18:00

لا يشك احد بان انجازات العقد الخمسيني في الثقافة العراقية كانت انجازات مهمة ومتشعبة وتجديديةً، وربما ساهمت انجازات ذلك العقد "البطولي": الفريد وشديد الثراء في خلق مبدعيه المعبرين عن منجزه المتشعب والمتنوع بصدق وجلاء واضحين؛ وقد يكون حدث "مصادفة" تواجد العدد الكبير من المبدعين ابان تلك الفترة، هو الذي اكسب تلك المرحلة الزمنية من تاريخ العراق الثقافي تلك الاهمية الفائقة؛ الاهمية التى ما برحت تأثيراتها تبدو واضحة وقوية على مسار تطوّر مجمل الاجناس الابداعية العراقية. وايا ً يكن الامر، فان العقد الخمسيني سيظل يمثل اهمية استثنائية في سجل المعطي الثقافي العراقي، نظرا لتشعب ذلك المعطى وشموليته ونفسَه التجديدي.. وأحد الذين عبروا وساهموا وابدعوا في تلك الفترة هو "جبرا ابراهيم جبرا" (1920- 1994) - "الكاتب الشمولي الموسوعي"، بحسب وصف "فخري صالح" له، والذي تحل ذكرى رحيله الحادية عشر في هذه الايام.يتعين التأكيد بادئ ذي بدء، بان جبرا ابراهيم جبرا، وبحكم مرجعياته الثقافية الرصينة والمتنورة قد وعى بصورة جيدة اهمية الاحداث الدراماتيكية والتجديدية التى كان يمور بها المشهد الثقافي العراقي وقتذاك، تلك الاحداث التى افضت في النتيجة الى تكريس مفاهيم جديدة وحداثية في مجالات ثقافية عديدة ساهمت، بالاخير، في تغيير الذائقة الفنية وبدلت من اساليب التعاطي للمنجز الثقافي بتجلياته المتنوعة. كما ان ذلك الوعي اقترن ايضا لدى "جبرا" بممارسة نشطة وجادة ومتنوعة في مجمل المنجز الثقافي العراقي، فهو بالاضافة الى كونه روائيا وناقدا فنيا، ومترجما وصحفيا، فانه ايضا.. رسام، ساهم بابداعه الفني في ترسيخ مبادئ التجديد والحداثة في الفن العراقي، جنبا الى جنب اصدقاءه وزملاءه في " جماعة بغداد للفن الحديث ".قد يجادل المرء في اساليب ونوعية اصطفاءات " جبرا " الثقافية، ومسعاه في تركيز الانتباه باتجاه جانب محدد ومنتقى من الثقافة العراقية، ولا سيما في تجلياتها الفنية، وعدم اكتراثه وحتى تغاضيه < المتعمد؟ > عن تناول الجوانب الابداعية الاخرى من تنوعيات الفن العراقي التى اكسبت ذلك الفن ثراء اسلوبيا واسست لاصالته المتميزّة . بيد ان الامر الاكيد بان مسعى "جبرا" التنويري والتجديدي كان امرا واضحا ومعترفا به. فقد ظل، بفضل معرفته الواسعة لاساليب النقد الحديث وتنوع نشاطه الثقافي مرجعا ً رصينا ً ومعتمدا ً لانجازات الفن العراقي الحديث وخصوصا في سنينه التأسيسة، ولم تقتصر متابعته في الشأن الفني فقط، وانما شملت جميع اجناس الثقافة الاخرى، بضمنها العمارة العراقية الحديثة، التى كان " جبرا " احد المعجبين والمتابعين والمروجيّنلانجازاتها على مدى اكثر من اربعة عقود، وهي الفترة التى وصل بها الى العراق لاول مرة عام 1948، قادما من بلده فلسطين، ولحين وفاته عام 1994. واعد شخصيا روايته " صيادون في شارع ضيق ") التى ظهرت ترجمتها الى العربية سنة 1974) بمثابة ايماءة اعجاب الى بيئة بغداد المبنية ومناخها " المتروبوليتاني " من خلال الحضور المميّز لشارعها المهم في الرواية: شارع الرشيد - الجادة الاكثر شهرة وفخامة في فضاء العاصمة العراقية. كما اذكر زيارتي له بالتسعينات في دارته بالمنصور في شارع الاميرات، الشارع الذي خلده بكتابه "شارع الاميرات" الصادر عام (1994)، للاستفسار منه عن نشاط المصور الفوتوغرافي "جاك برسفيل Jack Persival "، الذي عمل معه في مجلة "اهل النفط" في الخمسينات، والذي سجل بعدسته الرائعة منجز العمارة العراقية الحديثة بشكل خاص، والبيئة المبنية والاجتماعية العراقية بشكل عام؛ وقدمّ لي، في حينها، جميع المعلومات التى اكتنفت حياة ونشاط هذا الفنان الانكليزي، الذي يعود له الفضل في تأسيس فن "الفوتوغراف" العراقي الحديث. ... امتلك في ارشيفي الخاص مجموعة صور لاربع لوحات مرسومة من قبل "جبرا ابراهيم جبرا"، تعود الى فترة الخمسينات وتحديدا الى 1951- 1957. لا اعرف بالتحديد مصير هذه اللوحات، واين الان مستقرها؛ وازعم بان الكثيرين من محبي نتاج "جبرا" لا يعرفوا عنها الكثير، كما انها لم تظهر في غالبية المطبوعات التى تناولت ارث "جبرا" الفني.

اقدم هذه اللوحات الى القارئ، داعيا النقاد المختصين لابداء الرأي فيها، محاولا هنا، ابداء تعليقات شخصية وسريعة عنها.
تنتمي جميع اللوحات الاربع الى خصوصية " المناخ " الطليعي والتجديدي الذي كان سائدا في الخطاب الفني العراقي بالخمسينات، المناخ المتّطلع نحو المقاربات الفنية الحداثية، والتائق الى مجاراتها وتبني اساليبها الفنية بذائقة محلية متشكلة من اجتهادات ذاتية لتفسير تلك المقاربات ومحاولات محض شخصية لفهمها .
ولئن كان اكثر الفنانين العراقين المجايلين له في تلك الفترة، سعوا وراء ترسيخ "ثيمات" الحياة اليومية، لابطال "قرويين (!!) يمارسون فعالياتهم في المشهد المديني، كلوحة فائق حسن "في المطعم" و"الشجرة" لجواد سليم، و "الرحيل" لاسماعيل الشيخلي، ومنحوتة "الشرقاوية في ليلة الدخلة" لخالد الرحال، و"الملايّات " لمحمود صبري و"سوق في كربلاء" لحميد العطار و"جاء الرزق" لارداش كاكافيان، و"سوق الدهانة" لحميد العطار، و"ام اللبن" للورنا سليم، و"البناؤون" لكاظم حيدر، و"الفارس وحصانه "لزيد محمد صالح، و"الكوفة" لطارق مظلوم، وسوق الميدان" لرسول علوان وغيرهم من الفنانين الذين اشتغلوا كثيرا على تكريس موضوعة "النقيضة" المتمثلة بحضور القروي في المشهد الحضري؛ فان "جبرا" الرسام الذي لم يك بعد "هاضما" بشكل جيد مغزى ذلك الصراع الاجتماعي الذي طبع المجتمع العراقي بطابع خاص ومميزّ ، انتقى " ثيمة " مخالفة تماما لموضوعة اقرانه، وهي "ثيمة" <العائلة> - كناية، كما ارى، في تشبث الرسام في "اميج" الانتماءات الحميمية؛ التى احسّ، برهافة الفنان، بانها معرضة للتلاشي سريعا من الذاكرة، اثر النكبة التى حلت ببلده مؤخرا وقتذاك!.
في لوحات " العائلة - 1955 "، و " امرأة وطفلها - 1957 " و "النافذة " (1951)، يحرص "جبرا" الى جعل موضوعة لوحاته بمثابة مادة قابلة لاستيلاد افكار واستدعاء ذكريات متنوعة، يمارسها المتلقي الناظر الى شخوص اللوحة والناظرة هي اليه. ومما يسهم في تعزيز هذا الشعور اختيار الفنان للاسلوب التعبيري < بمدرسته الالمانية >، الاسلوب المثقل بفيض الاحاسيس والمترع بالترميز!. في لوحة " النافذة " ثمة وجه بورتريتي لامرأة نصفها الايمن يدلل على مرحلة شبابها والنصف الاخر وهي في خريف العمر، انها تتمعن بالمشاهد بعين مفتوحة وكبيرة في نصفها الايمن، وبعين متعبة وصغيرة في نصفها الايسر، لكن نظراتها ما فتأت تحمل سمات جمال غابر يؤكد حقيقته النصف الاخر من اللوحة. ثمة نافذة مفتوحة بدون اطارات (او بالاحرى حفرة معمولة بالجدار) تطل على فضاء مغلق، يغمر شعاعها النصف المسن من الوجه الانثوي المحاط بحيّز نصفه معتم والاخر مضئ، يتحدد فضاءه بقسوة من خلال خطوط المنظور الحادة التى تتلاشى نهاياتها في عتمة خلفية اللوحة.
لا يبدو "جبرا" الرسام، قادرا على النأي بعيدا عن تأثيرات مجايليه حتى النهاية؛ ففي لوحة " الصفّار - 1955 "، نشعر بنزوع الفنان نحو السعي الى تناغم "ثيموي" مع موضوعة فناني البيئة البغدادية اليومية، الموضوعة العزيزة على قلب الفنان العراقي الخمسيني. اذ تمثل اللوحة دكانا لبيع ادوات منزلية مصنوعة من النحاس / الصفر. تمور اللوحة بكثافة عارمة من اقواس لخطوط منحنية، ترسم تقاطعاتها اشكال تلك الادوات المنزلية البسيطة من اوانٍ وقدور و"تنك" لحفظ المياه، مرصوفة على شكل خطوط شاقولية متوازية تقسم سطح اللوحة الى تقسيمات عمودية متوازية في جزءها الوسطي، وتنتهي، كما بدأت بخطوط افقية في اعلاها وفي اسفلها. وتلوح هيئة الشخص البائع الجالس بين تلك الاواني، وكأنها جزءا من خضم الاشكال المنحية الحافلة بها اللوحة؛ انها تعبير عن ما يريد الرسام ايصاله لنا عن تمامٍ شديد وتآلف حميمي بين " الصانع " و " المصنوع "!. قد تمنح اللوحات المشار اليها في هذا المقال مع بقية نظيراتها التى انجزها "جبرا ابراهيم جبرا"، صورة واضحة عن ثراء وغنى المنجز الثقافي "للكاتب الشمولي الموسوعي". وليس المهم، في اعتقادي، هنا البحث عن مهارة تكوين اللوحات المرسومة وحذاقة الخطوط فيها، بقدر ما تفصح تلك اللوحات الفنية مقدار عمق واتساع شخصية المثقف "الرسولي" واهتماماته الجمالية، وتبين في الوقت ذاته، فداحة الخسارة التى فقدتها الثقافة العربية.. بوفاته.

http://elaph.com/Web/ElaphLiterature/2005/12/114199.htm

close